

حرية الإيمان مدخل للتنمية البشرية

يوسف هريرة
باحث مغربي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

إنسانيّتهم، عبرها تُكرّس أنماط التفكير، وتُؤسّسُ الرؤى واتجاهات الحياة الإنسانية. وعليه، فإن أيّ مَسّاس بهذا المكوّن الأساسي في حياة الإنسان، هو مَسّاس بشكل أو بآخر بهذا الجزء الأصيل المرتبط بكيّونته ووجوده، ولعل الحرية الدينية أحد أهم المقومات الثقافية التي تمكّن الناس من توسيع نطاق خياراتهم، وممارسة مواهبهم وطموحاتهم، دون الإحساس بالضيّق والإكراه.

وهكذا نكون قد تجاوزنا، بإدخال هذا العنصر في المفهوم الجديد للتنمية البشرية، تلك النظرة التقليدية التي ظلت حبيسة لها، مقبلين على عالم رحب تصير فيه التنمية عملية توسيع الخيارات بما فيها الحرية الدينية، ويصير الدين عاملاً رئيساً في النهوض بالأمم بدل تأخرها وتخلفها.

وإيماناً منا بأهمية الحرية الدينية في التنمية البشرية، نقوم بهذا العمل لإبراز الدور الذي يمكن أن تضطلع به حرية الإيمان كونها مدخلاً كبيراً لعملية التنمية البشرية، وذلك وفق التصور التالي:

دراسة مفاهيمية:

تمر ثقافة المجتمعات الإنسانية في فترات تشكّلها أو تكوينها بالعديد من الأزمات الفكرية والمعرفية، تصل إلى حد الانهيار الحضاري كما هو مجسد في عالم اليوم، حين تنسد آفاق التواصل والحوار، لتصير هذه المفاهيم مجرد شعارات للاستهلاك السياسي، أو قوالب جاهزة يتم تخدير الفرد والمجتمع فيها بما يمكن أن يخلق وعياً مزيّفاً لطبيعة المفاهيم المتداولة. ولا يحتاج الإنسان إلى الكثير من الاستطراد النظري التجريدي ليشرح عمق هذه الأزمات الفكرية؛ فقد صارت انعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية هي محور تشكل العقل السياسي والمعرفي لعالم اليوم.

تعد أزمة المفاهيم وتمثّلاتها في الكثير من الأحيان سبباً رئيساً في خلق الوعي المزيف، أو كَيّْ الوعي لدى الفئات المستهدفة من هذا التزييف. والمتتبع لمسار التاريخ، يفهم بأن مفهوماً ملتبساً قد يشكل الانطلاقة لانحراف كبير عن مسار الحضارة والتواصل، وكل أشكال القيم التي يسعى الإنسان إلى تمثيلها. هذا المنزلق الحضاري الذي تستدرجنا إليه اللغة، وما يحوم حولها من إشكالات يعد من أعماق الأزمات الضاربة في بنية الفكر الإنساني. والدين كونه تجسيداً لتمثّلات ثقافية ومعرفية هو عبارة عن مفاهيم مستقلة، تؤثر وتتأثر في سياق مسيرة تواصلية بألياتها ومصطلحاتها وألفاظها. فماذا نعني بحرية الإيمان؟ وماذا نعني بالتنمية البشرية؟. ذلك ما سنراه في النقاط التالية:

2- مفهوم الإيمان:

سيطر الفهم الثقافي ولا زال على القراءات المختلفة للنصوص الدينية، واكتسب هذا الفهم صبغة قدسية، حولتها له مؤسسة علمية بقواعدها وأصولها المعرفية في مقاربة الدين وكل ما يرتبط به من قريب أو من بعيد. ولم يكن الفكر الإسلامي بدعاً من الأفكار التي تأثرت بفعل واقعه التاريخي بمحيطها الثقافي والفكري. وحينما نقول الفهم الثقافي فلا نقصد إلا ذلك الجانب الذي تتداخل فيه المعطيات الموضوعية في تشكل الفكر والثقافة. وبذلك، نكون قد نزعنا عن الفكر صفة القداسة والشرعية، وسهلنا سبل إدراك النقد المعرفي لكل ما أفرزه هذا العقل عبر مختلف محطات تشكله. ونكون قد نبهنا إلى خطورة التصورات التي تسعى إلى عزل الفكر الديني عن الواقع الثقافي بكل تجلياته المذكورة سابقاً، وأكدنا على أهمية المعالجة الموضوعية في حدود المستطاع لمثل هذه الأفكار بعيداً عن التحيز، أو القراءات المغرضة.

إن دراسة أي نص كيفما كان انتمائه أو جنسه، لا بد أن تنطلق من بنيته الأساسية، وأي خروج عن هذه البنية هو تحريف لهذا النص، والخروج به ليصير موظفاً بطريقة تسمح لتمرير أفكار خارجة بالضرورة عن النص الأصلي، وما يسمى بـ "التفسير النبوي" هو أحد أطراف هذه اللعبة الإيديولوجية التي سمحت بتمرير العديد من الأفكار الخارجة عن بنية النص. ولعل الخطأ الكبير في بنية هذه المنظومة الحديثة، هي أنها التجأت للقرآن ليكون خادماً لمشروعها، ولم تكن بأي حال من الأحوال قارئة له من خلال بنيته وسياقاته.

يعلن القرآن الكريم في الكثير من آياته أنه لا يمكن أن يكون مجزأً إلى أفكار متباعدة ومتناقضة، فهذا هو المدخل الأساسي إلى مستنقع الأدلجة، فيقول: "وقل إنني أنا النذير المبين. كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عضين"²، وهذا طبيعي لأن إخراج النص عن سياقه، وقراءته في سياقات أخرى يعد قلباً للمفاهيم، وتمريراً لما يمكن تمريره من خلال هذه القراءات المجتزئة. كما أن القرآن يعلن بأنه مبين لا يحتاج إلى بيان للدلالة على أنه هو من يقوم بفعل الإبانة لغيره؛ فأى إقحام لعنصر آخر بحجة البيان، هو خرق للمنظومة القرآنية واتهام لها بالنقص.

كما تجدر الإشارة إلى شيء بالغ الأهمية قبل أن نخوض غمار هذا الموضوع، وهي مسألة لا تزال تطرح العديد من الإشكالات المنهجية في مدارس النص القرآني. إنها إشكالية المصطلح في القرآن، أو ما يسميه أبو القاسم الحاج حمد بـ "التوظيف الإلهي للغة"³. ففهم مصطلحات القرآن يجب أن يكون فهمًا موضوعيًا يتجاوز

² - سورة الحجر الآية 90

³ - حمد الحاج، أبو القاسم. (2004). جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية. (ط. 1). دار الهادي. ص 52

النظرة التجزئية التي طبعت التفسير بالمأثور، وذلك لا يتأتى إلا بالاحتكام إلى أسلوب القرآن نفسه على هدي التتبع الدقيق بمعهود استعماله للألفاظ والأساليب داخل سياقاتها القرآنية. وهذا يعد ضرورياً من الناحية المنهجية في مدارس القرآن الكريم، بدل التفسير التجزئي الذي يدرس القرآن سورة سورة، حيث يؤخذ اللفظ مجتزأً من سياقه القرآني، ويقرأ في سياقات تاريخية أو سياسية، أو مذهبية لا سبيل معها إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية للفظ.⁴

وانطلاقاً مما سطرناه سابقاً، يمكننا إعادة طرح السؤال من جديد: ماذا يعني الإيمان بعيداً عن الحملات الثقافية التي التصقت به إذن؟

كغيره من المفاهيم أخذ لفظ الإيمان بعداً غيبياً، وكانت الحمولة الثقافية التي تنحرف به إلى مآلات أخرى توطرها الرواية، والفهم التاريخي شأنه شأن كل المفاهيم التي بنيت على قاعدة رؤية روائية وثقافية. ولعل ما يسمى بحديث جبريل كان من الروايات المؤسسة للفهم التاريخي لهذا اللفظ، فلقد جاء فيه أن الإيمان هو: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره".⁵

وبصرف النظر عن كمّ التناقضات التي يحملها هذا المتن الروائي، فإنه قد حمل معنى الإيمان بحمولة التصديق الغيبي. وكما أسس الحديث نفسه لمفهوم الإسلام كما أشار إلى ذلك الصادق النهوم على قاعدة التمكين لبني أمية⁶، وبدل أن يكرس لمفهوم العدل جاء الحديث مركزاً على جانب الطقوس. هذا الأمر يمكن أن نسحبه كذلك على مفهوم الإيمان أيضاً؛ فقد شكّل واحداً من المفاهيم التي كانت تدفع بالمتلقي لكي يصير إيمانه تصديقاً لكل ما تمليه عليه الآلة الفقهية من غيبيات تأخذ أشكالاً تتعدد بتعدد الأغراض والوظائف.

بالرجوع إلى القرآن الكريم، يحيلنا الإيمان على مفهوم الأمان كما يؤكد جذره: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"⁷، ويأتي في مقابلة الكفر في آيات متعددة ليدل على أن الكفر تغطية للحق، والإيمان كشف له: "قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"⁸؛ فبالحق يزرع في نفوسنا

⁴ - انظر قريبا من ذلك الصدر، محمد، باقر. مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن. Pdf. على الرابط التالي: <http://www.2shared.com/complete/o8S1dmNa/pdf.html>

⁵ - النيسابوري، محمد بن مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، على الرابط التالي: http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=1&ID=80

⁶ - النهوم، الصادق. (1995). الإسلام في الأسر. (ط.3). دمشق: رياض الريس للكتب والنشر. ص 51

⁷ - سورة قريش الآية 4

⁸ - سورة الكهف الآية 29

الأمن فنزرعه في الآخرين تقديرًا منا لأهمية الحرية في تشكيل هذا الإيمان، أو نعرض فنكون قد عملنا على تغطية الحق، ولبسه بلبوسات مختلفة، وهذا هو منطق الكفر.

فالإيمان بهذا المعنى هو حصول حالة نفسية متجلية في الأمن، تدفع بالمرء أيضًا لتأمين الآخر في خياراته وقناعاته، وهذا هو الفاصل بين الإيمان والشرك أيضًا، فهذا الأخير ليس مفهومًا ارتبط بعبادة الأوثان المحسوسة أو الأصنام كما هو متداول في العرف التفسيري لهذه الكلمة فحسب، وإنما هو إشراك للآخر في قناعاتك وعدم تأمينه، فكل من يجبر أو يضغط على الآخر ليحمل قناعاته ويصدقها فهو مشرك⁹. وهذا هو الحد الفاصل بين الإيمان والشرك إذا لم ينتبه إليه المرء: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركين"¹⁰.

3- مفهوم حرية الإيمان:

وبناءً على التعريفين السابقين للحرية والإيمان، نخلص إلى أن حرية الإيمان، هي أن يصبح لدى الإنسان القدرة على التعبير عن ما يعتقد من تصورات ومعتقدات وأفكار، وأن يكون حرًا في اختيار دينه أو شكل تدينه من غير إكراه أو تعسف على ممارساته الدينية، وفي المقابل يضمن للآخر هذه الحرية والتعبير عن هذا الحق الشرعي، وبذلك يتحقق إيمانه الفعلي، ليس كفعل تصديق ارتبط بنشأة رواية كان الهدف منها التركيز على البعد الميتافيزيقي ونسيان البعد الأرضي. ولكن كفعل يتجسد فيه إرادة الإنسان بتأمين النفس والآخر على حد سواء في مسيرة تلغي التسلط والإكراه.

4- مفهوم التنمية البشرية المستدامة:

أما المكون الثالث في الموضوع قيد الدراسة، فهو التنمية البشرية فماذا يعني هذا المصطلح؟

ينبغي الإشارة إلى أن مفهوم التنمية عرف تطورًا كبيرًا عبر حقبة زمنية مختلفة، أسهمت في تشكيله وبلورته إلى أن وصل إلى الشكل الحالي المتعارف عليه دوليًا. هذا التطور المستمر في بلورة المفهوم، كان نتيجة طبيعية للنظرة الاقتصادية التي ارتبطت بهذا المفهوم بشكل كبير ولعهود طويلة. وقد كانت هذه النظرة مرتبطة بالتوجه العام الذي كان يرى بأن الثروة هي هدف الاقتصاد، ولا مكان للعنصر البشري داخل هذا السياق، وظل هذا التيار يلقي بظلاله على هذا المفهوم، وتتبناه مجموعة من المنظمات والمؤسسات الاقتصادية حتى وقت قريب. كل هذه الظروف أسهمت وبشكل كبير في بروز تيار مغاير ومخالف لهذه النظرة القاصرة،

⁹ - انظر قريب من هذا المعنى لدى، حسن خليل، سمير إبراهيم. (2011). الدين خرافة أم علم؟. (ط1) بيروت: دار الساقي. ص 43

¹⁰ - سورة يوسف الآية 106

يرى بأن الإنسان هو الهدف الأساسي لكل العمليات الاقتصادية، والوسيلة الكبرى لإنتاج الثروة، وتخيب الإنسان داخل هذا النسق هو إهدار لطاقاته العقلية والجسدية. ومن هنا بدأ مفهوم التنمية البشرية يأخذ ملامح شكله الأولى، حيث سيلتزم به البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة.

كانت هذه المفاهيم نقطة انطلاق لمشروع إنساني واعد، رد للإنسان قيمته داخل سياق لم يحترم إنسانيته، ولم يعط البعد البشري مكانته اللائقة به، بل قزّم دوره لتحل الثروة والإنتاج وكل المفاهيم الاقتصادية المعروفة بدله، وقد اتخذت نظرية التنمية البشرية المستدامة شكلاً مؤسساتياً من خلال تبني مجموعة من المؤسسات الدولية له وعلى رأسها البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة؛ فصار لها وزن داخل المنظومة العالمية، لتمارس تأثيراً قوياً على مسار العلاقات الدولية، مشكلة بذلك خطاباً أكثر إنسانية، لا يقلل من أهمية الاقتصاد، ولكن يضعه ضمن رؤية جديدة أكثر شمولية. وما تقرير التنمية البشرية العالمي الذي يصدر سنوياً عن البرنامج الإنمائي، وتقارير التنمية البشرية التي تغطي المستوى الوطني في البلدان المختلفة، إلا تجسيداً باللمس على صدق ما قلناه.

يعرف المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي التنمية البشرية المستدامة بقوله: "التنمية البشرية المستدامة هي تنمية لا تكتفي بتوليد النمو وحسب، بل توزع عائداته بشكل عادل أيضاً، وهي تجدد البيئة بدل تدميرها، وتمكن الناس بدل تهيمشهم، وتوسع خياراتهم وفرصهم، وتؤهلهم للمشاركة في القرارات التي تؤثر في حياتهم"¹¹.

فالتنمية كما جاء في التعريف، هي عملية توسيع خيارات الناس، هذه الخيارات التي لا يمكن أن تتأتى إلا بمجموعة من القدرات، وهي:

- حياة المرء حياة طويلة وصحية.
- حصوله على المعرفة.
- الحصول على موارد لازمة لمستوى عيش كريم.

¹¹ - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. (1997) ملامح التنمية البشرية في لبنان. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. ص ص 15-16

وإلى جانب هذه الخيارات، هناك خيارات تضعها التنمية البشرية في اعتبارها، ولعل الحرية الدينية التي لها صلة بموضوعنا أحد هذه الخيارات، إذ ليست التنمية البشرية مجرد تنمية موارد بشرية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى أن تصير عملية تحقيق إنسانية الإنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

أما كلمة مستدامة، فتعني تلبية حاجيات الأجيال الحالية دون تعريض قدرات وفرص الأجيال المقبلة للخطر. وكلمة مستدامة داخل هذا التعريف لا ينحصر معناها في البعد الاقتصادي كما أكدنا سابقاً، وإن كان الاقتصاد بعداً من الأبعاد الحيوية في عملية التنمية، ولكن الاستدامة تتعدى هذا الجانب إلى أفق يمتزج فيه الاقتصاد بما هو اجتماعي وثقافي وسياسي؛ فالمهم في هذا المنظور الجديد للتنمية، أنه وسع خيارات البشر لتصير كل تنمية تخلق تفاوتات طبقية صارخة بين مكونات المجتمع، أو تدمر البيئة، أو تنتهك الحريات، أو تخل بالتوازن الاجتماعي والسياسي، نقيضاً للتنمية البشرية المستدامة.

ولعل ما كتبه Amartia Sin حول التنمية، يعد فتحاً جديداً في تطوير مفهوم التنمية، حيث نظر إليها بكونها عملية توسع في الحريات الحقيقية التي يتمتع بها الناس، واعتبر أن الحرية هي ما تقدمه التنمية، لهذا يجب التركيز على هذا الهدف الأشمل بدلاً من التركيز على بعض الوسائل الجزئية، أو على عدد من الأدوات التي يجري انتقاؤها عمداً. والنظر إلى التنمية من هذا المنظور من شأنه أن يوجه الأنظار إلى غايات تجعل التنمية حدثاً مهماً بدلاً من مجرد التوجه إلى عدد من الوسائل التي لها مع غيرها دور بارز في العملية، كما عدّ أن تحقيق التنمية يستلزم إزالة المصادر الرئيسة لافتقار الحريات: كالفقر وشح الفرص الاقتصادية، وكذا الحرمان الاجتماعي المنظم، وإهمال المرافق والتسهيلات العامة، وعدم التسامح أو الغلو في حالات القمع.¹²

ومن خلال هذا المنظور الجديد للتنمية، نرى أن الحرية الدينية تحديداً يمكن أن تسهم بقدر كبير من الامتيازات، تتجاوز فوائدها الأفق الاقتصادي الضيق إلى أفق التواصل الحضاري والإبداعي الذي يحقق للدول من شروط النهضة ما يجعلها في مصاف الدول العظمى.

حرية الإيمان مدخل لثقافة السلم العالمي

1- الثورات العربية وعودة سؤال الدولة:

يعد البحث في قضية الدولة من البحوث المثيرة للجدل؛ فالمجال السياسي مجال يحتاج إلى الكثير من الدراسة لحساسيته من جهة، وأيضاً لتكيفية المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. لهذا شغل البحث في طبيعة

¹² - صن، أمارتيا. (2004). التنمية حريّة. (ع.303). سلسلة عالم المعرفة. ص 15

وليس عيباً أن نطمئن الناس على حقوقهم الدينية، وأن المواطنة حق للجميع يتساوى فيه المسيحي واليهودي والمسلم وغيرهم اعتماداً على قاعدة لا إكراه في الدين.

من خلال كل ما سبق تتبع إشكالية الدين وعلاقته بالدولة، وهي إشكالية مفاهيمية بامتياز. فلا بد من تحرير هذا المصطلح لنزول الغشاوة التي قد يلقبها علينا أطراف النزاع على حين غفلة منا؛ فالعلمانية جاءت في سياق ثوري على مؤسسة كنسية كان لها الأثر السيء على إنسان القرون الوسطى، ولا يمكن بحال أن ننزع من البيئات والدول الإسلامية مفهوم الدين جزءاً من التركيبة الذهنية والعقدية للإنسان لتصير العلمانية مقابلة للتطور والتقدم، ولا أن نكرس منظومات دينية ربما لا تراعي شروط القيم والحقوق والمبادئ التي وصل إليها الإنسان وكان الدين جزءاً مؤسساً فيها. ومن هنا تتبع أهمية مقارنة المسيري للعلمانية، فحسب الكاتب يجب التمييز بين مستويين من التعاطي مع الظاهرة العلمانية، حيث يقول: "ويوجد في تصورنا علمانيتان لا علمانية واحدة، الأولى جزئية ونعني بها العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة. والثانية الشاملة ولا تعني فصل الدين عن الدولة وحسب، وإنما فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، لا عن الدولة وحسب، وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص، بحيث تنزع القداسة عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها لصالح الأقوى"¹³.

2- السلام أساس التنمية:

يعد السلام والأمن أمراً محورياً ضمن منظومة التنمية البشرية المستدامة، إذ لا يمكن الحديث عن أي تنمية دون إدراج هذا العنصر الأساسي، فهي تحتاج كما هو متعارف عليه إلى مناخ من الاستقرار والأمن، من أجل تعبئة الموارد لتحقيق الهدف المنشود. ومن هذا المنطلق، كانت جهود الأمم المتحدة تنصب حول حفظ السلام العالمي، وضمان جو ملائم يحقق بالحد الأدنى ما تصبو إليه المجتمعات في مسيراتها التنموية.

إن تحقيق هذا المبتغى، ظل رهين مجموعة من الاعتبارات، لعل أهمها صيانة الحريات الثقافية، بما في ذلك الحرية الدينية؛ فأى تصور يريد قمع الحريات، وقولية الإنسان في قالب واحد دون احترام مكونات هويته، يكون مآله الفشل في تحقيق نهضة الأمم؛ فالتنمية البشرية كما أشرنا سابقاً تتطلب، إلى جانب تحقيق الشروط الأساسية لإنسانية الإنسان، الاعتراف بحرية الناس وحقهم في الانتماء الديني، وتضع حداً لكثير من الاضطرابات السياسية التي يكون فيها الجانب الثقافي والديني عاملاً سلبياً يعرقل عملية التنمية البشرية.

¹³ - المسيري، عبد الوهاب. (2002). العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية (ط1). دار الشروق. ص 16

- المسيري، عبد الوهاب. (2000). العلمانية تحت المجهر. (ط1). دمشق: دار الفكر. ص 119

عود على بدء

وهكذا فإن هناك علاقة وثيقة بين المكون الثقافي، المتمثل في الجانب الديني وبين التنمية البشرية وفق المنظور الجديد لمفهوم التنمية، المتجاوز للأفق الاقتصادي الضيق. وهذه السياسة التي تؤمن بالحرية الدينية، هي وحدها التي تضمن مشاركة فعالة للأطراف المختلفة، المكونة للمجتمعات في عملية التنمية البشرية، وتقضي على أسباب الاضطرابات والتوترات، التي تؤدي إلى خلخلة النظم الاجتماعية، وزعزعة السلم الذي يعوق التنمية البشرية المنشودة.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com